سرية الدعوة

في هذه البيئة التي انتشر فيها ظلام الوثنية بعث الله محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) برسالة الى هذا العالم يعلمه الحقيقة الخالدة، فاعتنقه أول الامر الافراد المتصلون بالرسول، كزوجته خديجة بنت خويلد، وابن عمه علي بن ابي طالب، وكان في كفالة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم).

وكان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يخرج مع بعض أتباعه إلى شعاب مكّة للصلاة فيها بعيداً عن أنظار قريش، إلاّ أنّ البعض منهم رأوهم يصلُّون، وهو ما جعلَ النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» يقرر اتّخاذ بيت «الاَرقم بن أبي الاَرقم» مكاناً للعبادة.

وقد ركّز الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) جهده في الدعوة السريّة، دون عجلة أو تسرّع، يعرض فيها دينه على كلّ من يثق فيه ويطمئن الى استعداده النفسي لقبول دعوته، ففي خلال ثلاثة أعوام اكتفى بالاتّصال الشخصيّ بمن وَجَدَه موَهلاً وصالحاً للدعوة ومستعداً لقبول الدين الجديد، ممّا ساعده في أن يكسب فريقاً من الاَتباع الذين اهتدوا إلى دينه بقبول دعوته.

وقد جمع النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في السنوات الثلاث الاَولى، أربعين شخصاً، لم يكن فيهم كفاية لاَن يصبحوا قوة دفاعية لحماية النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» ورسالته، ممّا جعله يسعى إلى دعوة أقربائه، فكسر بذلك جدار الصمت، بالشروع في دعوة الاَقربين ثمّ الناس أجمعين، فالنبي «صلى الله عليه وآله وسلم» كان يوَمن ويعتقد أنّ أي إصلاح وتغيير لابدّ أن يبدأ من إصلاح الداخل وتغييره، ومن هنا أمره اللّه تعالى بأن يدعو عشيرته الاَقربين، الذين تمنّى أن يكوّنَ منهم سياجاً قوياً يحفظه ويحفظ رسالته من الاَخطار المحتَملة: (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الاَقْرَبين) {سورة الشعراء: ٢١٤ } كما خاطبه بصدد الدعوة (فَاصْدَعْ بِما تُوَمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكينَ* إِنّا كَفَيْناكَ المُسْتَهْزِئِين) {سورة الحجر: ٩٤-٩٥ }.

الجهر بالدعوة ودور ابي طالب في حماية الرسول

أمر الرسول بعد السنة الثالثة بالجهر بالدعوة وعدم المبالاة بما نسب له المعارضون المستهزئون، فدعى الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بني عبد المطلب، فقال: إنّي واللّه ما أعلم شاباً في العرب جاء قومه بأفضل ممّا جئتكم به، إنّي قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني اللّه عزّ وجلّ أن أدعوكم إليه، فأيّكم يوَمن بي ويؤازرني على هذا الاَمر على أن يكون أخي ووصيّي وخليفتي فيكم؟» فقام علي (عليه السلام) وهو في الثالثة عشرة أو الخامسة عشرة من عمره قائلاً: «أنا يا رسول اللّه أكونُ وزيرُك على ما بعثك اللّه». و بعدما تكرّر هذا الموقف ثلاث مرّات، أخذ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بيد عليّ «عليه السلام» والتفت إلى القوم قائلاً: «إنّ هذا أخي ووصيّي وخليفتي فيكم، فاسمعوا له وأطيعوا».

بدأت عداوة قريش بعد ذلك تظهر جليا، لذا قرر سادة قريش مواجهة قائد تلك الجماعة ومحركهم، بوسائل الترغيب والترهيب، بالإغراء والتطميع، والإِيذاء والتهديد، حتى اتّخذوا قرارهم النهائي بالتخلّص منه بقتله، في الوقت الذي تمكن (صلى الله عليه وآله وسلم) من إبطال مؤامرتهم وإفشالها بالهجرة إلى المدينة.

وقد بدأوا التحرك في مطالبة كفيله (صلى الله عليه وآله وسلم) أبي طالب بأن يبعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عنهم قائلين له: يا أبا طالب إنّ ابن أخيك قد سبّ آلهتنا، وعاب ديننا، وسفَّه أحلامنا، وضلّل آباءنا، فإمّا أن تكفّه عنّا، وإمّا أن تُخلّي بينا و بينه. إلاّ أنّ أبا طالب رَدّهم بقولٍ جميلٍ حكيمٍ.

وقد تكررت محاولة قريش من ثني النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) عن الاستمرار في دعوته باستخدام مختلف الوسائل والاساليب بالطلب من ابي طالب تسليمهم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) او اقناعه بترك الدعوة لكنهم فشلوا في كل تلك المحاولات وان ابي طالب ابى خذلان رسول الله وانه آثر عداوتهم وفراقهم، وقد خشيت قريش ان يستميل الرسول الحجاج الذين كانوا يفدون على مكة

في الحج، وتشاوروا فيما بينهم للقضاء على الدعوة الاسلامية وهي لاتزال في مهدها، فاتفقوا ان يقولوا عنه ساحر، فجعلوا يجلسون بطريق الناس حين قدموا لموسم الحج ويحذرون من الرسول ويقولون عنه ساحر مجنون.

ولما خشي ابا طالب على ابن اخيه منهم، قال لهم انه غير مسلم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ولا تاركه لشي ابداً حتى يهلك دونه، فلجئوا الى تعذيب المسلمين عن طريق السفهاء.

هجرة المسلمين الى الحبشة

لما رأى الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ما اصاب اصحابه من البلاء من قبل الكفار الذين كانوا يحبسونهم ويعذبونهم، بالضرب والجوع والعطش، ليفتنوهم عن دينهم، فلما رأى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ذلك قال لهم: (لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكًا لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صدق حتى يجعل لكم فرجا مما أنتم فيه»، بهدف الحفاظ على عقيدتهم، والتخلّص من أذى قريش، والإِقامة في مكان آمن يقيمون فيه شعائرهم بحرية ويعبدون اللّه الواحد)، فكانت أول هجرة في الإسلام.

لقد هاجر في بادى الامر عشرة أو خمسة عشر شخصاً، بينهم أربع من النسوة المسلمات، ولم يكونوا من قبيلة واحدة، و ذلك في شهر رجب في السنة الخامسة من مبعث النبي (صلى الله عليه وآله وسلم).

وقد تبعت هذه الهجرة، خروج جماعة أُخرى بلغ عددها ٨٣ فرداً على رأسهم: «جعفر بن أبي طالب » ابن عمّ الرسول، وقد اصطحبوا فيها نساءهم وأولادهم، إلى أرض الحبشة أيضاً، وقد وجد المسلمون أرضها كما وصفها النبي: عامرةً، وبيئة آمنة حرة، تصلح لعبادة اللّه تعالى بحرّية وأمان.

فلما رأت قريش ان اصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قد امنوا واطمئنوا بارض الحبشة وانهم قد اصابوا بها دارا وقرارا، اجتمع الاَقطاب في «دار الندوة» للتشاور في هذا الاَمر

الخطير، فاستقر رأيهم على إرسال وفد منهم إلى البلاط الحبشي لاستمالة القواد والوزراء بالهدايا القيمة، لإخراج المسلمين من أرضهم، فبعثوا وفدا بقيادة عمرو بن العاص.

سار الوفد الى النجاشي ومعهما الهدايا وطلبا مقابلة الملك و قالا له: أيّها الملك إنّه قد ضوى، أي لجأ ليلاً، إلى بلدك منّا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك، وجاءوا بدينٍ ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشرافُ قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردَّهم إليهم، فهم أبصر بهم وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه.

وكان النجاشي بعيد النظر، فطلب هؤلاء المهاجرين وسألهم عن حقيقة دينهم فتقدم جعفر بن أبي طالب و وصف حال العرب قبل الإسلام وبعده، وشرح ان دعوة الرسول ترمي الى ترك الاوثان وعبادة الله والتخلق بمكارم الاخلاق، وتلا عليه بعض الآيات القرآنية التي تخص عيسى و مريم «عليهما السلام» فبكى النجاشي وبكى أساقفتُه معه، وقال: «إنّ هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة»، ويقصد أنّ القرآن والإنجيل كلام اللّه وأنَّهما شيء واحد، ثمّ التفت نحو موفدي قريش قائلاً :انطلقا فلا واللّه لا أسلمَهم إليكما، وقال للمسلمين أذهبوا فأنتم آمنون في أرضي، من سَبّكُم غُرِم، ثمّ ردّ على وفد قريش هداياهم قائلاً: فلا حاجة لي بها، فخرجوا من عنده خائبين.

المقاطعة الاجتماعية والاقتصادية لبني هاشم

لما رأت قريش ان مكايدهم التي دبروها للرسول «صلى الله عليه وآله وسلم» قد اخفقت، اجمعوا امرهم على مقاطعة بني هاشم وبني عبد المطلب و فرض حصار اقتصادي قويّ على النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) والمسلمين، لهذا وقَّع زعماء قريش في دار الندوة ميثاقاً كتبه: «منصور بن عكرمة» وعلّقوه في جوف الكعبة، وتحالفوا على الالتزام ببنوده حتى الموت، وذلك في السنة السابعة من البعثة، وقد ضم الميثاق البنود التالية:

١- عدم التعامل التجاري مع النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) وأنصاره.

٢- عدم التزاوج منهم.

٣- عدم التحدّث معهم أو تناول الطعام معهم.

٤- وأن يكونوا يداً واحداً على محمّد (صلى الله عليه وآله وسلم) وأنصاره.

وهكذا ظل بنو هاشم مهجورين في شعب من شعاب مكة، فقد استمر الحصار ثلاثة أعوام، جاع فيها الاَطفال والكبار متحمّلين قسوة الحال، فكان يعيشُ الفردُ منهم على تمرة واحدة طوال اليوم، وربما تقاسمها اثنان.

ولمّا كان لايُسمح لهم بالخروج من الشعب إلاّ في الاَشهر الحرم حيث يسود الاَمن في أنحاء الجزيرة العربية، فيخرج بنو هاشم للشراء والبيع ثمّ العودة إلى الملجأ، كما أنّ قريش عينوا الجواسيس على الطرق المؤدية للشعب حتى يمنعوا الاتّصال بالمسلمين، إلاّ أنّ بعضاً من أنصار النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كان يوصل الطعام إليهم سراً خلال الليل كما أنّ قريشاً كانوا يصادرون مال كلّ من أراد التعامل مع أصحاب الشعب، في الوقت الذي اشتدّ إيذاوَهم لمن أعلن إسلامه.

ولكنّهم تأكدوا بعد فترة ليست قليلة بأنّ حصارهم هذا لم يأت بنتيجة مرجوة، ولم يتحقّق هدفهم منه و من غيره من الوسائل والاَساليب، ففكروا في نقض الميثاق بأيّ شكل. فقد صرّح «زهير بن أبي أُميّة» في مجلس قريش في المسجد الحرام بعدما اتّفق مع عدد آخر من المعارضين لمقاطعة بني هاشم:

يا أهل مكّة، أنأكل الطعام ونلبس الثياب، وبنو هاشم هلكى لا يُباع لهم ولا يُبتاع منهم؟ واللّه لا أقعد حتى تُشَقّ هذه الصحيفة القاطعة الظالمة.

وقام «المطعم بن عدي» إلى الصحيفة ليشّها، فوجد أنّ الاِرضة قد أكلتها إلاّ عبارة :«باسمك اللّهم» فأسرع « أبو طالب» إلى الشِّعب يخبر الرسول «صلى الله عليه وآله وسلم» بما جرى، وانفك الحصار وعاد المحاصرون إلى منازلهم مرّة أُخرى.